التناص بين الانتماء الغربي والأصل العربي

للباحث: قاسم حسن القفة

جامعة الزاوية – ليبيا

توطئة:

يعد التناص بمسماه الحديث من أكثر التقنيات التي يلجأ إليها الأدباء المحدثون والتي لجأ إليها أيضا الشعراء القدماء تحت مسمى آخر هو السرقات الشعرية، ومن الجدير بالذكر أن هذه التقنية تجعل الشاعر يظهر بمظهر القوة الشعرية، كما أنها يمكن أن تدل على احترافيته وقوته الثقافية التي تومئ إلى مدى قدرته على تشرب الثقافات السابقة.

قبل أن ندخل في إشكالية المصطلح لامناص من الإشارة إلى تعريف كلمة نص في اللغة لأنها متصلة اتصالا مباشرا بمصطلح التناص ؛ فالنص في المعاجم العربية هو الرفع" [1] " ، والظهور[2] ، والبروز[3] ، والاستواء[4] ، وأقصى الشيء وغاياته[5] ، وأما في المعاجم الانجليزية فورد بمعنى وثيقة، وجسد، ونسيج، وكلام [6] ويبدو أن هناك تباينا بين ما أوردته المعاجم العربية والمعاجم الانجليزية، فالمعاجم العربية تشير إلى صفة قد تكون ملتصقة بالنص كالإبانة والوضوح ، بينما المعاجم الانجليزية تؤكد على الحقيقة المباشرة لمدلول الكلمة دون صفة ملتصقة بها، فجسد ووثيقة ونسيج وكلام وكتابة هي حقيقة وجوهر النص الذي ينظر فيه القارئ.

والتناص: من نص، نصا، الشيء: رفعه وأظهره، نقول نصصت الحديث أي رفعته إلى صاحبه [7]، وقال عمرو بن دينار:ما رأيت رجلا أنص الحديث من الزهري أي أرفع له وأسند، والنص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها،

---

[1] أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1982م، مادة (نص).

[2] تاج العروس، الزبيدي، تحقيق عبد الكريم العرباوي، وزارة الإعلام، الكويت، 1979م، مادة(نص).

[3] لسان العرب، ابن منظور، دار المعرفة، مصر، د.ت، مادة(نص).

[4] القاموس المحيط، الفيروزآبادي، دار الجيل، بيروت،ج2، ص213. لسان العرب، ابن منظور، ج6، ص244.

[5] لسان العرب، مادة (نص).

[6] Ducourt,Toodrow:Encyclopedia Dictionary Of Language,London,1979,P292.

[7] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1986م، 843/3.

والنص مصدر وأصله أقصى الشيء الدال على غايته أو الرفع والظهور، ونص كل شيء: منتهاه[8]، فالنص إذن الرفع والظهور والمنتهى.

والتناص: ازدحام القوم[9]، مضايقة بعضهم بعضا في مكان ضيق، وتدافعهم في حلقة تجمعية واحدة، ونصص المتاع: جعل بعضه فوق بعض[10]. والتناصص: مصدر الفعل زنة تفاعل[11]، أي المشاركة والمفاعلة والتعددية ومنه:" نصصت:إذا جعلت بعضه على بعض، ومنها ينصهم أي يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن ونص السنة، أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام".

لم يرد مصطلح التناص عند العرب بالمعنى الحرفي، ولكن هناك إشارة أوردها حازم القرطاجني في كتابه أشار فيها إلى أن الشاعر إذا ما أورد كلاما لغيره أو بعض الكلام أن يورده بنوع من التعريف والتغير أو التضمين فيحيل على ذلك أو يضمنه، أو يدمج الإشارة إليه، أو يورد معناه في عبارة أخرى من جهة قلب أو نقل إلى مكان أحق به من المكان الذي هو فيه [12] ومع أن هذه الإشارة جاءت عابرة للقرطاجني،ولكنها مفيدة فيما يخص مشروعية الأخذ أو السرقة التي ترتبط بالتحوير والتغيير في بنية النص الشعري المسروق، وحديثه هذا يقترب من دلالة المصطلح، ولكن لا يكشف عن المعنى الحقيقي للتناص .وعلى كل، يبقى التناص كمصطلح جديد ووجها آخر لظاهرة أدبية ونقدية قديمة فـ" ظاهرة تداخل النصوص هي سمة جوهرية في الثقافة العربية،حيث تتشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل[13] " فالتأمل في طبيعة التأليفات النقدية العربية القديمة يعطينا صورة واضحة جدًا لوجود أصول لقضية التناص فيه.

لقد اقتفى كثير من الباحثين المعاصرين العرب أثر التناص في الأدب القديم وأظهروا وجوده فيه تحت مسميات أخرى وبأشكال تقترب كثيرا من المصطلح الحديث، وقد أوضح الدكتور محمد بنيس ذلك وبين أن

---

[8] المصدر نفسه، 843/3.

[9] معجم متن اللغة، أحمد رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م، ص472.

[10] المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار العودة، استنبول، تركيا، 1989م، 926/1.

[11] من قضايا الشعر العربي المعاصر، التناص مع الشعر العربي، عبد الواحد لؤلؤة، مجلة الوحدة، س6، ع/82-83، يوليو، أغسطس، 1991م، ص14.

[12] مناهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد بن الحبيب بن الخوجة، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1987م، ص78.

[13] ثقافة الأسئلة" مقالات في النقد والنظرية"، عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، الطبعة الثانية، 1992م، ص119.

الشعرية العربية القديمة قد فطنت لعلاقة النص بغيره من النصوص منذ الجاهلية وضرب مثلا على ذلك بالمقدمة الطللية ، التي تعكس شكلا لسلطة النص حيث قال: " وقراءة أولية لعلاقة النصوص ببعضها وللتداخل النصي بينها فكون المقدمة الطللية تقتضي ذات التقليد الشعري من الوقوف والبكاء وذكر الدمن فهذا إنما يفتح أفقًا واسعًا لدخول القصائد في فضاء نصي متشابك ووجود تربة خصبة للتفاعل النصي[14]."

وإذا استمررنا في تتبع أصول التناص في أدبنا القديم نجد أن الموازنة التي أقامها الآمدي بين أبي تمام والبحتري تعكس شكلا من أشكال التناص ، وكذلك المفاضلة كما هو عند المنجم، والوساطة بين المتنبي وخصومه عند الجرجاني، ولما كانت السرقة كما يقول جينيت صنفًا من أصناف التناص فإنه بإمكاننا اعتبار ما كتبه النقاد القدامى كسرقات أبي تمام للقطربلي،وسرقات البحتري من أبي تمام للنصيبي، والإبانة عن سرقات المتنبي للحميدي ، تُظهر بشكل جلي مدى تأصل ظاهرة التناص في الشعر العربي ، وهذا لا يعد أمرًا غريبًا لأن التناص أمر لابد منه" وذلك لأن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تمامًا مثل الكائن البشري ، فهو لا يأتي من فراغ، كما أنه لا يفضي إلى فراغ ، إنه نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي ، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه"[15].

ومن هنا يتبين لنا تأصل ظاهرة التناص في الأدب العربي، فالتناص إذن في نقدنا العربي مر ببدايات غنية تحت مسميات نقدية تناسب عصوره القديمة وعاد من جديد للظهور متأثرا بالدراسات اللسانية الغربية الحديثة كمصطلح مستقل له أصوله ونظرياته وتداعياته، فقد حظي باهتمام واسع لشيوعه في الدراسات النقدية الغربية نتيجة للتفاعل الثقافي، وتأثير المدارس الغربية في الأدب العربي، وكانت دراسة التناص في بدايتها قد اتخذت شكل الدراسة المقارنة وانصرفت عن الأشكال اللفظية والنحوية والدلالية.[16]

لقد كان للدراسات الغربية صدى واسع في النقد العربي؛ إذ ظهر نقاد عرب سعوا إلى إعطاء تعاريف وتسميات جديدة لهذا المصطلح، فدخلوا في إشكالية المصطلح نتيجة لاختلاف الترجمات والمدارس النقدية؛ محمد مفتاح يسميه" التعالق النصي" ويعرفه: " التناص هو التعالق – الدخول في علاقة – نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة "[17]، ويرى يقطين " أن الاقتباس والتضمين والاستشهاد مفاهيم يشتمل عليه التعالق النصي"[18]،

---

[14] الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، محمد بنيس، الجزء الثالث: الشعر المعاصر، دار توبقال، المغرب، الطبعة الأولى، 1990م، ص183.

[15] ثقافة الأسئلة، عبد الله الغذامي، ص111.

[16] التناص (النشأة والمفهوم) جدارية محمود درويش نموذجا، إيمان الشنيني، مجلة أفق الإلكترونية، ص 2.

[17] نفسه، ص2.

وهو ما ذهب إليه أيضا علوي الهاشمي في كتابه ظاهرة التعالق النصي[19]؛ وأما محمد بنيس فقد استبدل مصطلح " التناص" بمصطلحات جديدة منها مصطلح " التداخل النصي " في كتابيه " ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب"، و" حداثة السؤال"؛ وهذا ما ذهب إليه حسن محمد حماد في كتابه تداخل النصوص في الرواية العربية.[20]

أما محمد الزعبي فقد عرف التناص بأنه " أن يتضمن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي... لتشكل نصا جديدا واحدا متكاملا "، فكل نص هو إناء يحوي بشكل أو بآخر أصداء نصوص أخرى، وهذا ما يسميه عبد الله الغذامي، بتناص النصوص؛ النص ابن النص، فالتناص إذن لا مفر منه وهو موجود في أدبنا ونقدنا العربي منذ الأزل[21].

لقد شعر الشعراء العرب القدامى خاصة في مطالعهم الطللية أنهم يكررون موضوعات ومعاني بعينها، وأن معجمهم الفني يكاد يكون واحدا من الوقوف والبكاء وذكر الدِّمَنِ، وهذا إنما يفتح أفقاً واسعاً لدخول القصائد في فضاء نصي متشابك[22]، فنقادنا القدامى قد تفطنوا لوجود مقاربة لفظية في نقدنا القديم، يرى بعض النقاد العرب" أن النص ينتج ضمن بنية نصية سابقة، فهو يتعالق بها ويتفاعل معها تحويلا أو تضمينا أو خرقاً "[23]؛ لأن الشعراء في القديم يشترطون على أن الشاعر لا يكون شاعرا فحلا متمكنا إلا إذا حفظ لفحول الشعراء فمن " قل حفظه للأشعار الجيدة لا يكون شاعرا؛ إنما يكون ناظما وساقطا".[24]

إن مصطلح التناص أخذ عدة تعريفات تباينت عند كثير من المحدثين فجوليا كرستيفيا عرَفت التناص بأنه : " تفاعل نصي يحدث داخل نص واحد" ويمكن من التقاط مجموعة نصوص مختلفة المقاطع أو القوانين لبنية

---

[18] انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م، ص316.

[19] ظاهرة التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث، علوي الهاشمي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، 1998ن، ص21.

[20] تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998م، ص 39.

[21] التناص(النشأة والمفهوم)، إيمان الشنيني، ص2-3.

[22] بنية الخطاب الشعري، عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص175.

[23] انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م، ص98.

[24] الأسلوبية وتحليل الخطاب الشعري، نور الدين السد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1997م، 118/2.

نصية باعتبارها مقاطع أو قوانين محولة من نصوص أخر ى[25] "وهي ترى أن " كل نص يتشكل من تركيبة فسيفسائية من الاستشهادات وكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى[26] "أي أن النص هو: ترحال للنصوص وتداخل نصي أين تتقاطع ملفوظات متعددة مجتزأة من نصوص أخرى، حيث تتفاعل هذه النصوص وتتصارع وتتشابك لتكون فضاء دلالي جديد يجسده النص الجديد، فالنص في تصوري ليس محاكاة أو إعادة إنتاج، وإنما هو نقل بطرقة جديدة أو إعادة كتابته بأنظمة مختلفة.

أما(ريفاتير) في تعريفه للتناص فإنه يربط فهمه بجانب التلقي عند القارئ بحيث ينظر إليه على أنه " إدراك القارئ للعلاقات الموجودة بين عمل وأعمال أخرى سبقته أو جاءت تالية عليه [27] " في حين أن(غراهام) يعرف التناص بأنه " الاعتماد الدائم تقريب ا،وإلى حد بعيد على شعر سابق، كما أنه يتوقع في الحالات العادية من قارئه معرفة معينة بشعر سابق "[28] ويقد م(لوران جيني) تعريفا للتناص فيرى أنه " عمل تحويل وتشرب لعدة نصوص يقوم به نص مركزي، يحتفظ بنص الصدارة في المعنى"[29]

ومن الجدير بالذكر أن (رولان بار ت) لم يغفل عن الحديث عن التناص فقد أشار إليه قائلا ":إن التناصية في حقيقتها هي استحالة العبث خارج النص اللامتناهي،سواء أكان ذلك النص، بروست، أم جريدة يومية، أم شاشة تلفزيون، فالكتابة تبدع المعنى والمعنى يبدع الحياة "[30] فالتناص عنده توسعت دلالاته وأصبح يتمركز بين جماليات التناص وبين ماهية الكتابة .وقد أضاف الناقد الفرنسي (جيرار جينيت) لذلك أن حدد أصنافًا للتناص وهي[31]:

1- الاستشهاد وهو الشكل الصريح للتناص

2- السرقة وهو أقل صراحة.

---

[25] علم النص، جوليا كرستيفيا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، الطبعة الأولى، ص79.

[26] التناص نظرياً وتطبيقياً، أحمد الزعبي، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية، 2000م، ص12.

[27] نظرية التناص، بير مارك دوبيازي ، ترجمة عبد الرحيم الرحوتي، مجلة علامات في النقد، جدة، المملكة السعودية، 1989م، ص314.

[28] مقالة في النقد، غراهام هو، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، 1973م، ص134.

[29] نظرية التناص، دوبيازي، ص92.

[30] لذة النص، رولان بارت، ترجمة منذر عياش، مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى، 1992م، ص70.

[31] الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، محمد بنس، ص183.

3- النص الموازي :وهو علاقة النص بالعنوان والمقدمة والتقديم والتمهيد.
4- الوصف النصي :وهو العلاقة التي تربط بين النص والنص الذي يتحدث عنه.
5- النصية الواسعة :وهي علاقة الاشتقاق بين النص (الأصلي/القديم) والنص السابق عليه (الواسع/الجديد).
6- النصية الجامع ة:وهي العلاقة البكماء بالأجناس النصية التي يفصح عنها التنصيص الموازي.

تعتمد تقنية التناص على إلغاء الحدود بين النص والنصوص أو الوقائع أو الشخصيات التي يضمنها الشاعر نصه الجديد حيث تأتي هذه النصوص موظفة ومذابة في النص فتفتح آفاقًا أخرى دينية وأسطورية وأدبية وتاريخية عدة مما يجعل من النص ملتقى لأكثر من زمن وأكثر من حدث وأكثر من دلالة فيصبح النص غنيًا حافلا بالدلالات والمعاني، ويوضح الدكتور علي العلاق هذه التقنية يقول " القصيدة باعتبارها عملا فنيًا تجسد لحظة فردية خاصة وهي في أوج توترها وغناها وهذه اللحظة تتصل على الرغم من تفردها بتيار من اللحظات الفردية المتراكمة الأخرى"[32]

لقد تناول الشاعر العربي القديم موضوعات بعينها غير أن كل قصيدة تقوم على جمالية متميزة، تكونت حسب قدرة الشاعر الإبداعية ووعيه مثلا،" الوقوف على الأطلال". وقد عرف أدبنا العربي ما يعرف بالسرقات الأدبية سواء من حيث اللفظ أم المعنى؛ ولعل هذا نمط من أنماط التداخل النصي، لأن الشاعر أو الأديب لم يكن متفرداً بموضوعاته التي يطرحها، وإنما هو متفتح على ما قد قيل ويقال، وعلى دراية بم يدور حوله في النصوص الإبداعية، فيستعير عن سابقيه ويختلس منهم، ويقتبس عنهم، يقول ابن فارس: " والشعراء أمراء الكلام...يقدمون ويؤخرون، يومئون، ويشيرون، ويختلسون، ويعبرون، ويستعيرون.".[33]

فالشاعر العربي لم يكن بمنأى عن تعالق النصوص فهو لا ينتج بمفرده وإنما بواسطة تلك الطاقة الخلاقة الكامنة في أعماقه، يستطيع استلهام ما قاله أقرانه فهو يأخذ من سابقيه فيعمل على مثالها ويحتذى بها، وبذلك تنصهر هذه النصوص في باطن المبدع وتكون الأحقية للمبدع الذي استطاع استيعاب هذا الزخم ممن سبقوه.

لقد أفرد النقاد العرب لهذا التداخل والتعالق بين النصوص الإبداعية مصطلحات منها النسخ، المسخ، السرقة، التلفيق...[34]، ومن النقاد كذلك من اعتبر هذه الأشكال سرقات تنقص وتحط ممن ضمنّها نصه الأدبي،

---

[32] الدلالة المرئية، علي العلاق، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2002م، ص51.

[33]الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها، وسنن العرب في كلامها، ابن فارس أبوالحسن أحمد زكريا، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ص267.

[34] السرقات الأدبية، بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ص28.

ومنهم من يراه ضرورة إبداعية، ولعل طرفة بن العبد الشاعر العربي القديم من أوائل من ذم السرقة الشعرية حين قال:

ولا أغِيرُ على الأشعَارِ اسْرِقُهَا عَنْهَا غَنَيتُ وَشَرُّ الناسِ مَنْ سَرِقا[35]

لقد حدد النقاد العرب أنماطاً لترحال النصوص وتداخلها منها التمييز بين المباح وغير المسموح به، ومثال ذلك قول الحريري:

على إنّي سأنشد عند بيعي أضاعوني وأي فتى أضاعوا

نجد أن شطر البيت الثاني ذكره العرجي في إحدى أبيات قصائده حين أشار إلى ذلك في قوله:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر[36]

النوع الثاني وهو الاقتباس من القرآن أو الحديث النبوي الشريف، كقول ابن سناء الملك:

رحلوا فلست مسائلا عن دارهم أنا باخع نفسي على آثارهم[37]

حيث اقتبس الشاعر شطر بيته الثاني من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[38]، لقد صنف الحاتمي للتعالق النصي مستويات تدخل كلها في إطار السرقات الشعرية كما سماها نقادنا القدامى، ولعل من أهمها هو الاهتدام وهو ما تسميه كريستيفا النفي الجزئي، يقول أحد الشعراء:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما نعرض ليلى بكل سبيل

وقد أخذه من قول جميل مع نفي جزء واحد فقط:

أريد لأنسى ذكراها فكأنما تعرض لي ليلى على كل مرقب[39]

ويعد الحاتمي" محمد بن الحسن بن المطفر 388ت" من أفرد كثيراً من نقده حول السرقات الأدبية، حيث وضع لها أبواباً كثيرة منها:

الانتحال، الانحال، الإغارة، الاجتلاب، الإصطراف، الاهتدام،[40] ومن الذين أقروا كذلك الأخذ عن الغير قول الإمام علي كرم الله وجهه:" لولا أن الكلام يعاد لنفذ"[41]، كذلك أبوهلال العسكري حيث انتصر لذلك حيث

---

[35] المصدر نفسه، ص33.

[36] الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص431.

[37] أصول البلاغة، كمال الدين هيثم البحراني، تحقيق عبد القادر حسين، القاهرة، 1981م، ص84.

[38] سورة الكهف، الآية6.

[39] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981م، ص261-262.

[40] المصدر نفسه، ص259-258.

[41] السرقات الأدبية، بدوي طبانة، ص35.

قال:" ليس لأحد من أصناف القائلين غني عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم".[42]

فالكتابة إذن هي إعادة إنتاج، وأن التناص هو قدر كل مبدع، ومعنى ذلك كما قال الشاعر العربي ما أظن ما نقول إلا كلاما معادا مكرورا، وأن الكلام الأول الذي لم يكن مكرورا هو ما نطق به آدم كما ذهب إلى ذلك" رولان بارت".

ويؤكد هذا الكلام ابن رشيق حيث قال: " ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السابقة"[43]، فهو يشير إلى توظيف الوقائع التاريخية، وهذا ما تنبه إليه" حازم القرطاجني" وتكلم عنه في باب الإحالة التي قسمها إلى " إحالة تذكرة، إحالة محاكاة، مفاضلة، إضراب، إضافة"[44]، وقد أدرك حازم قضية التناص مما لاحظه من ضعف في أشعار معاصريه حين قال:" فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة من نحا نحو الفحول ولا من ذهب من مذهبهم في تأصيل مبادئ الكلام وإحكام وضعه وانتقاء مواده التي يجب نحته منها، فخرجوا بذلك إلى مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم هذا على كثرة المبدعين المتقدمين في الرعيل الأول من قدمائهم"[45]، فكلامه إشارة إلى تحاور النصوص، وأن المبدع الذي لا يستوعب إبداعات سابقيه ويطعم بها نصوصه يؤول شعره إلى الضعف وعدم حذق الصنعة.

وهذا عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم نجده ينتصر للمعنى الخاص – المعنى النحوي – مخالفا بذلك معظم النقاد، وهذا المعنى الخاص هو الذي يتفرد به الشاعر وهذا كله لا ينفصل عن مفهومه للنظم، ويقر" الجرجاني" بوجود المعنى العام والذي يمكن تناوله في الشعر" فسبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجود في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمل إليه البصير بشأن البلاغة، وإحداث الصورة في المعاني، فيصنع منه ما يصنع الصانع الحاذق حتى يعرب في الصنعة...ويبدع في الصياغة"[46].

---

[42] المصدر نفسه، ص36.

[43] العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، الطبعة الأولى، 1983م، ص150.

[44] مناج البلغاء، وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامية، الطبعة الثانية، بيروت، 1989م، ص27.

[45] المصدر نفسه، ص10.

[46] دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1978م، ص324.

ويقدم لنا مثالا على ذلك: " الطبع لا يتغير، ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه، فترى المعنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وأمة ثم تنظر إليه في قول المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل[47]

فنجد المبدع قد وظفه بصورة جيدة على ما كان عليه في الكلام العام، فالميزة تعود إلى المبدع، وكيف يوظف المعاني بطريقته الخاصة التي تجعله يتفرد ويتميز عن غيره.

كما أن امتصاص النصوص عنده يعرف بالاحتذاء: " واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء، وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له وعرض أسلوباً...فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجئ به في شعره فيشبه بمن يقطع أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال احتذى على مثال".[48]

وهذا ليس معناه إلغاء الإبداع وإنما لكل واحد طريقته الواعية المتفردة ومعماره الجمالي: " ولكن ليس معنى الاحتذاء هنا فقدان الشخصية والقصد الفردي في العملية الإبداعية، بل أنه يؤكد على عملية الوعي في تركيب الأسلوب"[49]، وهذا لا يتأتى إلا بالاستعارة التي تصنع التمايز بين مبدع وآخر، فمفهوم" الجرجاني" لتداخل النصوص يرتبط بمفهومه للنظم الذي هو: " توخي معاني النحو في معنى الكلام، وأن توخيها في متون الألفاظ محال"[50].

فمحاورة النصوص تتأتى بالابتكار والخصوصية التي تميز كل مبدع وهو بذلك ينتصر لمعنى المعنى الذي يبين حقيقة قدرة المبدع في إعطاء الدلالة الجديدة: " تغفل من اللفظ معنى ثم يفضي ذلك المعنى إلى معنى آخر"[51]، ويحدد هذا التعالق بمستويين، المستوى السطحي، والمستوى العميق، المستوى السطحي وفيه: " يقتدي المتأخر بمن تقدم وسبق ولا يخلو من أن يكون في المعنى صريحا أو في صيغة تتعلق بالعبارة"[52].

---

[47] شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، جودت فخر الدين، دار الآداب، بيروت، 1984م، الطبعة الأولى، ص87.

[48] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص361.

[49] البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، 1994م، ص23.

[50] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص276.

[51] المصدر نفسه، ص203.

[52] المقدمة، ابن خلدون، دار العودة، بيروت، ص474.

المستوى العميق، وهنا تكمن مهارة المبدع في إنتاج الدلالات الجديدة، وإذا تتبعنا نظرية النظم نجد أن الجرجاني قد رصد أنواع التناص، وهي تحتاج منا إلى كثير من الدراسة العميقة المدققة.

أعتقد أن ابن خلدون يتفرد برؤية مستحدثة للإنتاجية الشعرية ووجه تعلم الشعر حيث يرجع صناعة الشعر إلى الصورة الذهنية" ... فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة عليه باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينزعها الذهن من أعيان التركيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال".[53]

إن ابن خلدون لا ينفي الابتكار والتجديد، في حين يقول إن المبدع لا مناص له من العودة إلى الموروث الأدبي الجيد منه" ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب والنساج في المنوال"[54]، فهو يشير إلى القدرة اللغوية أو الكفاءة اللغوية كما يسميها " تشومسكي "، هذه القدرة التي تمكن المبدع من التعبير عن رؤاه بأسلوب جديد ومعاني جديدة.

إن ابن خلدون يضع شرطا لحفظ أشعار العرب حتى لا يبقى المبدع في ظل النمطية والاجترار، وهذا الشرط يتمثل في حفظ هذه الأشعار ثم نسيانها، لتتهذب ملكة اللسان " إن من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فإذا وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ في النسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة"[55]، فالمبدع لا خلاص له من التناص، فالنص الجديد لا يتوالد إلا من نصوص غائبة يضفي عليها جديده، وهذا لا يعني وضع النصوص الغائبة وضع المقدس، غير المباح الاقتراب منه فهو " شيء لا مناص منه، لأنه لا فكاك منه للإنسان بشروطه الزمانية والمكانية"[56]، فإنتاج أي نص يرتكز على سعة آفاق مبدعه وهذا ما يساعد على تأويله وقراءته قراءة صحيحة من القاريء.وقد ظهرت نظريات لسانية ونفسانية عدة تهتم بالخلفية المعرفية للمبدع والمتلقي، وهذا ما تقوم به الذاكرة من خلال عمليتي البناء والتنظيم...

ونتيجة لكل هذا أصبح الخطاب النقدي المعاصر لا ينظر إلى النص الأدبي على أنه حدث انعزالي فردي، ولكنه أصبح نتاجا تفاعليا وتضاعف العديد من النصوص الأدبية السالفة والمتزامنة؛ فالتناص إذا ضروريا للكاتب

---

[53] المقدمة، ابن خلدون، ص474.

[54] المصدر نفسه، ص474.

[55] نفسه، ص573.

[56] تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص123.

والشاعر، لأنه لا يوجد كلام يبدأ من فراغ؛ فهو بعث للتراث الحضاري من جديد، أو قراءة له وفق رؤى مختلفة وبتقنيات حداثية سواء أكان عن طريق التخالف أو التآلف أو الكلي أو الجزئي أو الإشاري.

رغم نشأة نظرية التناص عند الغرب؛ إلا أن النقاد العرب استفادوا منها كثيرا في دراساتهم وتوظيفاتهم النقدية لها، فقيمة هذه النظرية لا تنهض فيما تقدمه من قراءة جديدة للنص فحسب؛ بل في الدور الذي تؤديه لتخليص بعض المناهج النقدية من العقم الذي أضحى يهددها، إذ استطاعت أن تكسر الحاجز الذي أقامته البنيوية حول النص، حين رفض كل ما هو خارج عليه، وانشغلت عن تأدية وظيفة الوسيط بين النص والمتلقي بأمور أخرى.[57]

لقد بذل النقاد العرب والنقاد الغرب جهودا مستفيضة لأجل إيجاد مفهوم واضح لمصطلح التناص (محمد مفتاح، محمد بنيس، عبد الله الغذامي، سعيد يقطين...) وغيرهم ممن حاولوا التنظير والتعريف لهذا المصطلح متأثرين بمن سبقهم من النقاد في الغرب (باختين، كريستيفا، تودوروف...)، والحقيقة التي تفرض نفسها أن كل ما وصل إليه النقاد جميعا يصب في أن التناص يمثل: " تبادلا، حوارا، رباطا، اتحادا، تفاعلا بين نصين أو عدة نصوص".[58]

الخاتمة

- النص الأدبي ليس عالما منغلقا على نفسه، وإنما هو امتدادات عميقة داخل سياقاته الخارجية والمحيطة به، لهذا فإننا وفي الفترة الأخيرة، ومع تهافت النقاد على الدراسات النقدية الحديثة، تحول النص الأدبي إلى عالم منفتح على عوالم جديدة أدت به إلى التفاعل – التأثير والتأثر – لأنه في خضم هذا الزخم الصوتي المتعدد يجد الأديب نفسه في صراح دائم ضد أساليب الآخرين ليختط في الأخير طريقه الخاص، ويمتلك أسلوبه الخاص، وهذا التفاعل الخصب بين النصوص الحاصل عن استحضار التجارب الأدبية للآخرين ثم دمجها في التجارب الفنية الخاصة، هو ما نسميه التناص.
- التناص هم مجموعة العلاقات التي تربط نصا أدبيا – بصفة خاصة – نص آخر أو نصوص أخرى، في مستوى إبداعه(من خلال الاقتباس، الانتحال، التلميح، المعارضة...إلخ) وفي مستوى قراءته وفهمه بفضل الربط الذي يقوم به القارئ، وهو أيضا شبكة من الأفكار والخطابات والموضوعات الثقافية التي تدخل في تفاعل مع أثر أدبي ما.

---

[57] التناص، اقتحام الذات عالم الآخر، حسان فلاح أوغلي، مجلة الموقف الأدبي، العدد 355، نيسان، 2001م، دمشق، ص1.

[58] لذة النص، أو مغامرة الكتابة لدى بارت، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص29.

- كل نص أدبي هو تحويل وتشرب وامتصاص لنصوص معينة؛ وأن النص الأدبي ليس ظاهرة أحادية ولكن مجموعة من فسيفساء الاستشهادات.
- يبقى النص حصيلة ثقافية وحضارية لرحلة الأدب عبر إبداعه بل عبر حياته كلها؛ فإنتاج التناصات لا يتم إلا من خلال تقاطعاتها مع الذات التي يعاد عبر سيرورتها إعادة إنتاج هذه التناصات، وإعطاؤها دلالات جديدة نابعة مع الوضع السوسيو ثقافي لمؤلف النص، أو كما يقول (جنيت) بأنه تلاقح النصوص عبر المحاور والاستلهام والاستنساخ بطريقة واعية أو غير مقصودة كما هو الشأن عند كريستيفا وباختين.
- نجد التناص في النقد العربي مصطلحا جديدا لظاهرة أدبية ونقدية قديمة، فالنتأمل في طبيعة التأليفات النقدية العربية القديمة يعطينا صورة واضحة لوجود أصول لقضية التناص فيه ولكن تحت مسميات أخرى، وبأشكال تقترب من المصطلح الحديث، حيث بين النقاد أن الشعرية العربية القديمة قد فطنت لعلاقة النص بغيره من النصوص منذ الجاهلية، وضرب مثلا بالمقدمة الطللية والتي تعكس شكلا لسلطة النص وقراءة أولية لعلاقة النصوص ببعضها وللتداخل النصي بينها.
- لقد لجأ الشعراء القدماء إلى التناص تحت مسمى آخر هو السرقات الشعرية، ومن الجدير بالذكر أن هذه التقنية تجعل الشاعر يظهر بمظهر القوة الشعرية، كما أنها يمكن أن تدل على احترافيته وقوته الثقافية التي تومئ إلى مدى قدرته على تشرب الثقافات السابقة.
- لم يرد مصطلح التناص عند العرب بالمعنى الحرفي، ولكن هناك إشارة أوردها حازم القرطاجني في كتابه أشار فيها إلى أن الشاعر إذا ما أورد كلاما لغيره أو بعض الكلام أن يورده بنوع من التعريف والتغير أو التضمين فيحيل على ذلك أو يضمنه، أو يدمج الإشارة إليه، أو يورد معناه في عبارة أخرى من جهة قلب أو نقل إلى مكان أحق به من المكان الذي هو فيه.
- لقد اقتفى كثير من الباحثين المعاصرين العرب أثر التناص في الأدب القديم وأظهروا وجوده فيه تحت مسميات أخرى وبأشكال تقترب كثيرا من المصطلح الحديث، وقد أوضح الدكتور محمد بنيس ذلك وبين أن الشعرية العربية القديمة قد فطنت لعلاقة النص بغيره من النصوص منذ الجاهلية وضرب مثلا على ذلك بالمقدمة الطللية ، التي تعكس شكلا لسلطة النص .

المصادر والمراجع

1- أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1982م.

2- الأسلوبية وتحليل الخطاب الشعري، نور الدين السد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1997م.

3- أصول البلاغة، كمال الدين هيثم البحراني، تحقيق عبد القادر حسين، القاهرة، 1981م.

4- انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م.

5- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت.

6- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، 1994م.

7- بنية الخطاب الشعري، عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.

8- تاج العروس، الزبيدي، تحقيق عبد الكريم العرباوي، وزارة الإعلام، الكويت، 1979م.

9- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981م.

10- تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

11- تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998م.

12- التناص (النشأة والمفهوم) جدارية محمود درويش نموذجا، إيمان الشنيني، مجلة أفق الإلكترونية.

13- التناص نظرياً وتطبيقياً، أحمد الزعبي، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية، 2000م.

14- التناص، اقتحام الذات عالم الآخر، حسان فلاح أوغلي، مجلة الموقف الأدبي، العدد 355، نيسان، 2001م، دمشق.

15- ثقافة الأسئلة" مقالات في النقد والنظرية"، عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، الطبعة الثانية، 1992م.

16- الدلالة المرئية، علي العلاق، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2002م.

17- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1978م.

18- السرقات الأدبية، بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، الفجالة.

19- الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، محمد بنيس، الجزء الثالث: الشعر المعاصر، دار توبقال، المغرب، الطبعة الأولى، 1990م.

20- شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، جودت فخر الدين، دار الآداب، بيروت، 1984م، الطبعة الأولى.

21- الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها، وسنن العرب في كلامها، ابن فارس أبوالحسن أحمد زكريا، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.

22- ظاهرة التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث، علوي الهاشمي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، 1998م.

23- علم النص، جوليا كرستيفيا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، الطبعة الأولى.

24- العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، الطبعة الأولى، 1983م.

25- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، دار الجيل، بيروت.

26- لذة النص، أو مغامرة الكتابة لدى بارت، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991م.

27- لذة النص، رولان بارت، ترجمة منذر عياش، مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى، 1992م.

28- لسان العرب، ابن منظور، دار المعرفة، مصر، د.ت.

29- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار العودة، استنبول، تركيا، 1989م.

30- معجم متن اللغة، أحمد رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م.

31- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1986م.

32- مقالة في النقد، غراهام هو، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، 1973م.

33- المقدمة، ابن خلدون، دار العودة، بيروت.

34- من قضايا الشعر العربي المعاصر، التناص مع الشعر العربي، عبد الواحد لؤلؤة، مجلة الوحدة، س6، ع/82-83، يوليو، أغسطس، 1991م.

35- مناج البلغاء، وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامية، الطبعة الثانية، بيروت، 1989م.

36- نظرية التناص، بير مارك دوبيازي ، ترجمة عبد الرحيم الرحوتي، مجلة علامات في النقد، جدة، المملكة السعودية، 1989م.